سِيَر إسلامية

١

صلاح الدين الأيوبي

البطل الناصر لدين الله

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

الطبعة الثالثة

١٤٠٠هـ
١٩٨٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه اجمعين،ومن تبعهم بإحسان وإيمان وجهاد إلى يوم الدين ، اما بعد :

فإن الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي معجزة من معجزات الإسلام الخالدة ، وآية من آيات الله الباهرة ، وهو حقيق بان يعكف على دراسة سيرته واخباره اجيال المسلمين وعلماؤهم وحكامهم ، واصحاب الفتوة والفروسية والطموح والغيرة الإسلامية ، والبطولة الإنسانية في كل زمان ومكان وفي كل عصر ومصر ، وان يتنافس المؤلفون ، وحملة الأقلام والمحققون ، في التاليف في سيرته ومكارمه

www.abulhasanalinadwi.org

وبطولاته ، وأن تشكل له مجامع علمية ، تنقطع إلى التحقيق والتأليف في هـذا الموضوع ـ ولكن مع الأسف الشديد ، لم يوفِ المسلمون والعرب حق هذا الرجل ، ولم ينصفوا هذا الموضوع ، ولا يـزال ما ألف في بعض اللغـات الأوروبيـة ـ وخاصة في اللغة الإنجليزية ـ يفوق كثيراً ما ألف في اللغات الإسلامية ، ولا يزال هذا الموضوع ينتظر مؤلفاً عالي الهمة ، طويل الدراسة ، دقيق النظر ، رحب الصدر ، واسع الأناة ، يتفرغ للتأليف في هذا الموضوع .

ولعل هذا العصر الذي نعيشه هو أشد حاجة ، وأكثـر طلباً لإبراز محاسنه ، وتحديد مكانتـه في تاريخ الجهـاد والتجديد الإسلامي من كل عصر مضى ، ولا يـزال هاتف الغيب يهيب بهذه الأمة على لسان خير الدين الزركلي ويقول :

هاتي صلاح الدين ثانيـة فينـا
وجددي حطين أو شبـه حطينا

وكان قد سبق لي فصل مفرد في سيرة صلاح الدين ضممته إلى فصول كتاب ألفته في لغة المسلمين، واللغة العلمية في الهند التي تسمى : بـ « أردو » اسميته « تاريخ الدعـوة

www.abulhasanalinadwi.org

والعزيمة)).ولما الح علي الأخ العزيز الأستاذ ((محمد علي دولة)) صاحب (دار القلم) في دمشق بتاليف كتاب في سيرة هذا الرجل العظيم ، وكنت ولا ازال اعتبر تحقيق هذا الفرض عملاً اتقرب به إلى الله ، وارجو به الخير الكثير لقادة البلاد الإسلامية ، والشباب المثقف الطموح ، ولكن ذلك يحتاج إلى فراغ خاطر ، وسعة من الوقت ، وكثرة مراجعة لما كتب عنه في عصره وبعد عصره ، في اللغات الإسلامية والأجنبية ، ولعله لا يتسنى لي إلا بعد مدة طويلة ، فاقترحت على احد إخواني الشباب وهو الأستاذ محمد اجمل الإصلاحي الندوي ان ينقل هذا الفصل إلى اللغة العربية ، فإنه على وجازته قد احتوى على معلومات مفيدة ، ويعطي صورة إجمالية ، ولكن مشرقة وضاءة لهذا القائد الإسلامي الكبير ، ويشوق إلى دراسة أوسع ، ومعرفة اكمل (وإن لم يصبها وابل فطل) وقام بالترجمة والنقل في مدة قريبة ، واحسن وأجاد ، وتناولت عمله بتحرير خفيف وتعديل يسير .

وها هو بين يدي القراء ، عسى أن يجدوا فيه ما يقوي ثقتهم بخلود هذه الرسالة ، ونجابة هذه الأمة ، وقوة الإيمان،

www.abulhasanalinadwi.org

وما يصنع من عجائب ، ويعرفون به الفارق الكبير بين هذا القائد الإسلامي الذي تربى في أحضان الإيمان ، وتخرج في مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين القادة الذين ارتضعوا بلبان الثقافة الأجنبية ، ونشأوا في احضان النفعية والمادية ، وأبرزتهم إلى ميدان القيادة الأغراض الشخصية ، والمطامح السياسية ، وهو الفارق الذي ميز تمييزاً كبيراً بين النتائج والآثار ، ولا يزال العالم الإسلامي يكتوي بناره ، ويدفع قيمته . وبالله التوفيق .

١٣٩٥/٤/١٠ هـ ١٩٧٥/٤/٢٣ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
زاوية الشيخ علم الله الحسني رحمه الله
رائي بريلي

www.abulhasanalinadwi.org

الغارات الصليبية

وخطر جديد على الإسلام

بينما كانت حركة العلم والدرس والتأليف قائمة على قدم وساق في العواصم الإسلامية وفي العالم الإسلامي ، وكان عدد من كبار المشايخ والمربين منقطعين إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، كان العالم الإسلامي كله مهدداً بخطر كبير ، وقد أصبح وجود المسلمين حتى الإسلام نفسه معرضاً للفناء ، وكانت أوروبا النصرانية منذ قديم الزمان تنطوي على حقد دفين للإسلام ، وتضمر له ولأهله عداء توارثته كابراً عن كابر وجيلاً بعد جيل ؛ فقد استولى المسلمون على مملكتها الشرقية التي كانت تحكمها الدولة البيزنطية ، وكانت جميع مقدساتها ومولد المسيح نفسه تحت حضانتهم وسيطرتهم ، وكان يكفي هذا الوضع لاستفزاز أوروبا وإثارة دافعها لأخذ الثأر من المسلمين ؛

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن لم تكن لتتجاسر على الطموح إلى الشام وفلسطين أو أي بلد إسلامي ؛ لوجود دول إسلامية قوية وهجماتها المتواصلة على الدولة النصرانية المجاورة ، إلا أنها لما رأت سقوط الدولة السلجوقية وضعف الثغور الشمالية للمملكة الإسلامية تشجعت وتطلعت ، وساعدها حظها ، فوجدت في هذا العصر خطيباً مصقعاً ، وواعظاً دينياً مثيراً ، في شخصية الراهب « بطرس » الذي ألهب مشاعر الناس في العالم النصراني بخطبه الرنانة المجلجلة ، وأحدث فيه موجة عارمة من الجنون الديني ، من أقصاه إلى أقصاه ، وتضافرت كذلك عوامل أخرى عديدة ، سياسية واقتصادية، قد حببت الغارات الصليبية إلى الناس [1] .

على كل حال ، فأول جيش للصليبيين توجه إلى الشام سنة ٤٩٠ هـ ، واستولى في ظرف عامين على مدن « الرها » و « أنطاكية » وأكثر قلاعهما ، وأخذوا « بيت المقدس »[2] في سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) وفي بضع سنين أصبح جزء

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية ؛ مقال Crasades

(٢) المراد ببيت المقدس : مدينة القدس .

www.abulhasanalinadwi.org

كبير من فلسطين وساحل بلاد الشام تحت أيدي الصليبيين مثل « أنطرطوس » و « عكة » و « طرابلس الشرق » ، و « صيدا » . ويصور المؤرخ الإنجليزي الكبير « ستينلي لين بول » دخول الجيوش الصليبية في البلد الإسلامي ، فيقول :

« توغل الجيش الصليبي في البلاد كما يشق أحد خشباً متخوراً بالياً ، وخيل للناس ولو لبرهة من الزمان ان الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام ويكسرونها تكسيراً (١) » .

ويتحدث مؤرخ آخر ــ وهو من كبار المؤرخين النصارى ــ عما فعل الصليبيون الغاشمون الألداء بالمسلمين المنكوبين العزّل الأبرياء عند دخولهم بيت المقدس ، وقد تملكتهم نشوة الانتصار ، فيقول :

« لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين وضعوا السيف في الناس ، واحدثوا مجزرة هائلة ، حتى يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب ، واخذوا بارجل

---

(١) السلطان صلاح الدين الايوبي .

www.abulhasanalinadwi.org

الاطفـال وضربوهم عرض الحائط ، او دوروهـم ورمـوا بهم مـن سور البـلد ، واحرقوا اليهـود كلهـم في هيكلهم وهم احيـاء » .

« وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي ترتعد لها الفرائص على مستوى اكبر واوسع ، ولم يـزل يناشدهم « تينكرد » ما قد جعله في ذمته من تامين ثـلاث مئة من الاسرى ، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ، ولم يراعوا ضمانه ، وقتلوهم عن آخرهم . ثم حدثت مجزرة مريعة ، فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلاً ، ومثلت اجسادهم تمثيلاً ، وقد تكدست قطع اجسادهم واعضائهم الممزقة ، ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة امروا الأسرى العرب فغسلوا شوارع المدينة الملطخة بالدماء (١) » .

وكانت نكسة « بيت المقدس » تؤذن بضعف المملكة الإسلامية وسقوطها ، ويقظـة العالم النصراني ونهوض قوته الناشئة ، وكانت نذير خطر في العالم الإسلامي ، فقد تأسست أربع ولايات نصرانية في الشـام وفلسطين : (القدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرُّها) ، وكانت تشـكل

---

(١) « دائرة المعارف البريطانية » : ج : ٦ ، ص : ٦٢٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

خطراً قائماً وسيفاً مسلولاً على حرية مركز الإسلام ، وقد توسعت أطماع النصارى إلى أن هم « ريجي نالد » والي كرك بالزحف على الحرمين الشريفين ، وتفوه بما يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ ، وأبدى نواياه الخبيثة .

والحق أن هذه المرحلة كانت أدق وأحرج مرحلة في التاريخ الإسلامي بعد وقعة الردة ، فكان وجود الإسلام معرضاً للخطر ، وقد تحتم على العالم الإسلامي أن يخوض معركة مصيرية حاسمة .

وفي أوائل القرن السادس الهجري كان العالم الإسلامي قد وقع فريسة لاضطراب متزايد وفوضى عامة ، فكان خلفاء ملك شاه السلجوقي متحاربين فيما بينهم ، وأما الخلفاء العباسيون فقد نقلوا سيادتهم إلى الأتراك قبل زمن بعيد ، ولم يوجد في العالم الإسلامي سلطان عملاق أو قائد عبقري يحمل من صلاحية القيادة وتدبير الأمر ، ما يجمع به البقية الباقية من طاقات العالم الإسلامي ، ويضمها تحت لواء واحد ، ويقاوم الخطر الذي يتعرض له من الشمال والغرب ؛ وصدق « ستينلي لين بول » إذ يقول :

www.abulhasanalinadwi.org

« كان هذا العصر عصر لَبْس واضطراب ، وقد تملكهم العجب لما يرونه من احتضار مثل الدولة السلجوقية المرهوبة الجانب ، المترامية الأطراف ، وظلت هذه المرحلة ـ مرحلة الفوضى والاضطراب ـ إلى أن برزت طاقات جديدة ووجهت إلى جهة واحدة ، وبالجملة فكان هذا العصر الانتقالي أطيب فرصة لأوروبا لشن الغارة على المملكة الإسلامية وتثبيت انتصارها على وجه الدهر » (١) .

أتابك عماد الدين الزنكي :

وبينما كان العالم الإسلامي يعاني من هذا الصراع العنيف ، واليأس المتزايد ، والكمد القاتل ؛ إذ تألق على أفقه نجم جديد ، ووجد العالم الإسلامي ـ كما تعوده في أدق مراحله وأحرج مآزقه ـ قائداً جديداً ، ومجاهداً عبقرياً ، وبطلاً مغواراً ، وبرزت طاقة جديدة عملاقة من حيث لم يكن في حسبان أحد ـ يقول « لين بول » :

« تحتم على المسلمين أن يعلنوا الجهاد ، ويقذفوا بقائد عصامي ، يثبت جراءته وبسالته وصلاحيته الحربية ،

---

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢١ .

www.abulhasanalinadwi.org

وينجب أمراء الترك وولاة الدولة طائفة من الأبطال المؤمنين المحاربين ؛ ليؤاخذوا الصليبيين على ما اقترفوه من عدوان واضطهاد للمسلمين الأبرياء ، وها قد برز القائد العصامي : عماد الدين الزنكي »[1] .

وكان عماد الدين ربيب نعمة السلاجقة ، ومعلم أبناء السلطان محمود السلجوقي ، وقد ولاه السلطان على الموصل ، فجند عماد الدين قواته في العراق والشام ، وشن الغارة على «الرها» التي كانت أقوى وأحصن منطقة في ولاية الصليبيين ، ولها أهميتها الاستراتيجية الخاصة ، فاستولى الزنكي عليها في السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ (٢٣ كانون الأول ١١٤٤ م) وكان انتصاره « فتح الفتوح » كما يعبر عنه المؤرخون العرب ، وكانت هذه المدينة طاقة كبيرة للمملكة اللاتينية ، وهكذا تحصن وادي الفرات من خطر الصليبيين . وبعد مدة قليلة من هذا الانتصار الباهر استشهد عماد الدين بيد عبدٍ في سنة

---

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، ولكن باب الجهاد الرائع والكفاح المتواصل للصليبيين الذي فتحه قبل شهادته لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بفضل جهود ابنه الكبير الملك العادل نورالدين الزنكي الذي فاق في ذلك والده العظيم .

الملك العادل نور الدين الزنكي :

واليوم كان نور الدين محمود سلطان الشام ، وكان يرى نفسه مأموراً من الله تعالى لدحر الصليبيين واستعادة بيت المقدس ، ويعتبر ذلك أكبر عبادة وأعظم وسيلة للتقرب إلى الله ، وقد استقرت مهابته في جميع الولايات الصليبية لغاراته المتواصلة عليها .

وقد فتح في سنة ٥٥٩ هـ قلعة « حارم » التي كانت من قلاع الثغور الشمالية المنيعة ، وكان في جملة الأسرى صاحب « أنطاكية » والقمص صاحب « طرابلس » والدوك مقدم « الروم » و «ابن جوسلين » وغيرهم من كبار قوادهم ، والصليبيون في هذه المعركة بين قتلى يزيد عددهم على عشرة آلاف قتيل ، وبين أسرى لا يأتي عليهم العد

www.abulhasanalinadwi.org

والإحصاء. وفي نفس السنة فتح السلطان قلعة «بانياس»[1]، وكذلك استولى على مصر فحاصر الصليبيين من جهتين. يقول « لين بول » :

« إن سيطرة قائد نور الدين ــ سلطان الشام ــ (صلاح الدين) على النيل قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأة شديدة من ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيشين لنفس القوة، وبفضل استيلائهم على مرفأي دمياط والاسكندرية أخذوا أسطولاً بحرياً، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوروبا»[2].

على كل حال فقد طرد السلطان الصليبيين ــ إلى حد كبير ــ من جميع أنحاء منطقة فلسطين ، ولكن أحسن أعماله ، وأغلى آماله ، وأحلى أمانيه ؛ كانت تتركز في استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين المحتلين ، ومن يدري ! فإن القدر المحتوم قد كتب هذه الكرامة لقائد جيوشه السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي هو بنفسه

---

(١) « الكامل » لابن الأثير (١١/١٢٤) .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ٨٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

خليق بأن يعتبر من حسنات نور الدين ومآثره . وتوفي السلطان نور الدين في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) في مرض الخناق بالغاً من عمره ستاً وخمسين سنة ، وقد طرق نعي السلطان ـ كما يصف المؤرخ الإنجليزي ـ آذان المسلمين كصاعقة سقطت عليهم من السماء [١] .

اخلاق نور الدين ومحامده :

وقد بالغ جميع المؤرخين المسلمين في الثناء على السلطان نور الدين محمود ، ووصفوه بالتقوى والأمانة والعدل وحسن الإدارة ، وكرم النفس ورقة الخلق ، وولوعه بالجهاد في سبيل الله ، فالسلطان ـ كاسمه ـ ممدوح عند جميعهم ومحمود .

يقول ابن الجوزي ـ وهو من معاصري السلطان ـ في تاريخه « المنتظم » :

« جاهد الثغور، وانتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ١١٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

في أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة ، وكان يتدين بطاعة الخلافة ، وترك المكوس قبل موته ، وكان يميل إلى التواضع ، ومحبة العلماء وأهل الدين »[1] .

ويصفه ابن خَلِّكان ـ وهو معروف بأمانته التاريخية ، ودقته وتحفظه في اختيار الكلمات ، واقتصاده في الوصف والثناء ـ فيقول :

« كان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشريعة ، مائلاً إلى الخير ، مجاهداً في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار .. وله من المناقب والمآثر والمفاخر مايستغرق الوصف » (٢) .

ويتحدث عنه صاحب تاريخ الكامل ـ وهو المؤرخ الكبير ابن الأثير الجزري ـ فيقول ما لا مزيد عليه لمستزيد:

« وقد طالعت سير الملوك المتقدمين ، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحرياً منه العدل » (٣) .

---

(١) « المنتظم » لابن الجوزي .

(٢) وفيات الأعيان ترجمة محمود نور الدين الزنكي .

(٣) « الكامل » : ١١/١٦٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان ابن الأثير عندما توفي السلطان في الرابعة عشرة من سنه ، ولذلك فقوله جدير بأن يكون أكثر دقة وصحة ، وأن ينم عن اطلاع ومعرفة .

فيقول ابن الأثير وهو يصف سيرة السلطان ويشيد بأخلاقـــه :

« كان لا ياكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له ، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها قال : ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين ، لا اخونهم فيه ، ولا اخوض نار جهنم لاجلك !! وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله فيه اوراد حسنة (١) » .

« وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر » .

« وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده ــ على سعتها ــ مَكْساً ولا عُشْراً ، بل أطلقها جميعها في مصر والشام

---

(١) « الكامل » : ١١/١٦٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

والجزيرة والموصل ، وكان يعظّم الشريعة ، ويقف عند أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول : قد جئتُ مُحاكَماً فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له ، فوهبه الخصمَ الذي أحضره ، وقال : أردت أن أترك له ما يدّعيه ؛ إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكِبْر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ، ثم وهبته ما يدّعيه . وبنى دار العدل في بلاده ، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم — ولو أنه يهودي — من الظالم — ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده — » .

« وأما شجاعته فإليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها ، فقال له القطب النشّاوي الفقيه : بالله عليك ، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ؛ فقال له نور الدين : ومَنْ محمود حتى يقال له هذا ؟! مِن قبلي مَنْ حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو » !!

www.abulhasanalinadwi.org

« ... وكان يكرم العلماء وأهل الدين ، ويعظمهم ويعطيهم ، ويقوم إليهم ، ويجلسهم معه ، وينبسط معهم ، ولا يرد لهم قولا ، ويكاتبهم بخط يده ، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه . وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب[1] » .

ولوعه بالجهاد وقوة إيمانه بالله تعالى :

وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفاً إلى الجهاد ومحاربة الصليبيين ، فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحببة ، وكان يتمتع في ذلك بقسط وافر من الإيمان واليقين ، والعزم والإخلاص ، والتوكل على الله تعالى ، وبُعْد الهمة والثقة بالنفس .

وفي سنة ٥٥٨ هـ انهزم نور الدين في معركة حصن الأكراد — وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة — لمباغتة الصليبيين، وكان نازلاً بالقرب من حمص ، وكان بينه وبين العدو عدة فراسخ ، فقال للسلطان بعض من كان يمحض النصيحة له : ليس من الرأي أن يقيم السلطان ههنا والعدو المنتصر جدٌّ قريب ، فأسكته السلطان وقال :

---

(١) « الكامل » : ١١/١١٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

« إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثاري وثأر الإسلام » .

وفرّق السلطان الأموال في العسكر ، وأغدق عليهم العطايا ، وقال له بعضهم : إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم ، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب السلطان من ذلك ، وقال :

« والله إني لا ارجو النصر إلا بأولئك، فقد جاء في الحديث الشريف « إنما ترزقون وتنتصرون بضعفائكم » كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، واصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن اعطيه غيرهم (١) ؟! » .

وأخذ السلطان نور الدين في الاستعداد والتأهب للجهاد والأخذ بثأره من الصليبيين الذين هزموه ، وأغدق على العسكر الأموال والمنح والسلاح ، وأرسل إلى أصحاب الأطراف وولاة الأمر في البلاد الإسلامية ، يحرضهم على الجهاد في سبيل الله والانضمام إلى لوائه .

---

(١) « الكامل » : ١١٩/١١ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكاتب زهادها وعبّادها ، وصلحاءها وقرّاءها ، يذكرهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، يستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثّوا المسلمين على مكافحة الغزاة ، فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويدعون له ويبكون [1] ، حتى ثار الناس للجهاد في سبيل الله ، ونفروا خفافاً وثقالاً ، وجاء العدو بخيله ورَجِلِه ، وحدّه وحديده ، وملوكه وفرسانه ، وقسوسه ورهبانه ، فحمي الوطيس ، وشبت حرب شعواء ، وأوفى السلطان بنذره ، فهزم قوى العدو الموحدة هزيمة نكراء ، واستولى على قلعة حارم ، وانتزعها من أيدي الأعداء .

ومما يدل على قوة إيمان نور الدين ويقينه ، أن أخاه « نصرة الدين » أمير « أميران » أصابه سهم في محاصرة قلعة « بانياس » فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال لـه :

« لو كشف لك عن الأجر الذي اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى !! » [2] .

---

(١) « الكامل » : ١١/ ١٢٢ ــ ١٢٣ .

(٢) « الكامل » : ١١/١٢٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

السلطان
صلاح الدين

إن شخصية صلاح الدين الايوبي معجزة كبيرة من معجزات الإسلام ، وآية باهرة من آيات صلاحيته وخلوده .

نشا السلطان جنديا عريقا ، وسليل اسرة كردية متوسطة ، ولم يكن في حساب احد ـ قبل فتح مصر وحروبه ضد الصليبيين ـ ان هذا الشاب الكردي اليافع سيكون فاتحا لبيت المقدس ، وحارسا لامانة الإسلام ، وذائدا عن حوزة العالم الإسلامي ومعيدا لمجد المسلمين وعزهم وكرامتهم، ولم يكن يحسب احد انه قدرت له السعادة التي يفار عليها كبار الصلحاء والعباد وكرام المحاتد والاعراق ، وانه يقوم بالعمل الجليل الذي يدخل على روح النبي الطيبة الغبطة والسرور .

يقول «لين بول» :

« ظل صلاح الدين مثلاً لامعاً للتقوى الذي يتسم بالصمت والهدوء الروحي ، ويجتنب الطبائع الكريمة من

www.abulhasanalinadwi.org

التلوث بالشوائب الخلقية ، ولمّا يأتِ ببادرة تدل على أنه سوف يصبح رجلاً عملاقاً،أو بطلاً من أبطال التاريخ[1]».

ولكن لما قيّضه الله لهذا العمل العظيم هيأ له الأسباب من لدنه ، فألح عليه وليُّ نعمته السلطان نور الدين ،وبعثه إلى مصر .

يقول القاضي بهاء الدين بن شداد أمين سر السلطان صلاح الدين في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » :

« ولقد قال لي السلطان ــ قدّس الله روحه ــ : كنت أكرَهُ الناس للخروج في هذه الواقعة (يعني الخروج إلى مصر) وما خرجت مع عمي[2] باختياري ، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى:«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم[3]».

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٦٣ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين محمود للاستيلاء على مصر .

(٣) « النوادر السلطانية » : ص ٣١ .

www.abulhasanalinadwi.org

تحول في حياة صلاح الدين :

لما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وخلا له الجو ، وأخذ بزمام الحكم ، وقع تحوّل عظيم في حياته ، وتمكن في قلبه أن الله تعالى قدّر له عملاً جليلاً لا يلائم الترف والرفاهية ونعومة الحياة ، يقول القاضي ابن شداد :

« وملكَ الرجال ، وهانت عنده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عما مضى ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمّص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته »[1] .

ويؤيد ذلك ما يقوله المؤرخ النصراني :

« وأما بالنسبة لنفسه فإن صلاح الدين شدّد في أمور حياته ، وبالغ في زهده وورعه اللذين كان يمتاز بهما من قبل أيضاً ، وصرف نفسه عن رغد العيش ، وتجافى عن ملذات الحياة ، وضيّق على نفسه في جميع شؤونه ؛ ليكون قدوة لرفاقه وزملائه ، واستنفد جهده لتأسيس دولة

---

(١) النوادر السلطانية : ص ٣٢ ـ ٣٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

إسلامية جبارة تتمتع بقدرة كاملة على إجلاء الكفار عن المملكة الإسلامية كلياً ، فقال مرة : إن الله لما أعطاني مصر حسبت أنه قدّر لي فلسطين أيضاً . ومنذ ذلك الوقت لم تزل غاية حياته انتصاراً للإسلام ، وإظهاراً له على الدين كله ، وقد عاهد الله على محاربة الكفار والجهاد في سبيل الله إلى آخر حياته [1] » .

شغفه بالجهاد وحنينه إلى الشهادة :

كان السلطان صلاح الدين ولوعاً بالجهاد ، كثير الاهتمام به ، فكان الجهاد عبادته ، ولذة عيشه ، وغذاء روحه ، وطيب نفسه ، يقول القاضي بهاء الدين بن شداد :

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله وأولاده ، ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة .. وكان الرجل إذا اراد ان يتقرب إليه

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ١٨٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

يحثه على الجهاد .. ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر في يمينه (١) » .

ويصوّر ابن شداد حنين السلطان إلى الجهاد وغرامه به وتوجعه للإسلام ، فيقول :

« وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه ، وينادي يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع »[٢] .

« ولم يَطْعَم (في معركة عكة) طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب ، كان يشير بها الطبيب »[٣] .

« ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه »[٤] .

---

(١) « النوادر السلطانية » ص : ١٦ — ١٧ .
(٢،٣) نفس المصدر : ص : ١٥٥ .
(٤) نفس المصدر : ص : ٩٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

معركة حطين الحاسمة :

وأخيراً ، وبعد حرب ومناوشات كثيرة ، وقعت المعركة التي كانت معركة مصيرية حاسمة عبر التاريخ ، قضت على دولة فلسطين الصليبية ، وقررت مصير الصليبيين المحتوم ، وهي معركة حطّين التي اندلعت في يوم السبت ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (٤ تموز ١١٨٧ م) وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً .

يصور « لين بول » ميدان الحرب فيقول :

« أسر كبار قواد الجيش الصليبي وفرسانه ، وكان من جملة الأسرى « كائي » صاحب « القدس » وأخوه «جاتيلان» و «ريجي نالد» صاحب « جنين » و«الهمفري» صاحب « تنين » ومقدّما الداوية والاسبتار ، وغيرهم من رجالات الصليبيين ومقدّميهم . وكان سائر فرسان الصليبيين الفلسطينيين وشجعانهم تحت حراسة المسلمين ، ولم يسلم من الجند الصليبي فارس أو راجل إلا أسره المسلمون ، وقد رأوا أن شخصاً واحداً من المسلمين يذهب

www.abulhasanalinadwi.org

بثلاثين صليبياً ، أخذهم وحده ، مشدودين بطنب[1] من أطناب خيمته ، وقد تكدّست أجساد القتلى بين الصلبان والأعضاء المقطعة ، وتراكمت كالصفائح والأحجار بعضها فوق بعض ، وأما هاماتهم المقطوعة فكانت متناثرة كثمار البطيخ في مزرعة[2] » .

« وظل هذا الميدان الذي وقعت فيه معركة حطين الطاحنة ــ والذي يقال فيه أنه قتل فيه ثلاثون ألف رجل ــ معروفاً لديهم ، وبعد عام من وقوع المعركة كانت أكوام العظام البيضاء تلوح للناس من بعيد،وكان ما تركه الوحوش من قطع الأشلاء منتشراً هنا وهناك[3] » .

غيرة السلطان الدينية :

سيسجل قلم التاريخ بإعجاب وإكبار ــ مع هذا الفتح المبين ــ تلك القصة التي تدل على قوة إيمان السلطان صلاح الدين وغيرته الدينية المتأججة ، فلندعْ المؤرخ

---

(١) الطنب : الحبل الذي يربط بالوتد .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٣) نفس المصدر : ص ١٨٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

الإنجليزي يتحفنا بحكاية هذه القصة التي تشعل مجامر القلوب ، وتشحنها بالإيمان واليقين ، وتثير كامن الغَيرة في نفوس المسلمين :

« أمر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته في ميدان القتال ، واستحضر الأسرى ، فجيء بالملك « كائي » و « ريجي نالد » و « جاتيلان » صاحب « جنين » كليهما، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه في أشد حال من العطش قدم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ، وناول بعضه « ريجي نالد » « حاكم كرك » فكره السلطان ذلك وقال للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته ، وإنا إذا قدمنا إلى أحد رغيفاً أو ملحاً أمن بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتي ، ثم لم يلبث أن قام إلى « ريجي نالد » الذي كان لم يزل واقفاً على رجليه منذ دخل الخيمة ، فقال له السلطان : ألا إني نذرت قتلك مرتين : مرة حينما كنتَ أردت الزحف على الحرمين الشريفين ، وأخرى حينما هجمت على قافلة الحجاج وغدرتَ بهم ، وها أنا ذا أنتصر لمحمد ﷺ على غدرك واستخفافك

www.abulhasanalinadwi.org

بالمقدسات ؛ قال ذلك وسلّ سيفه،وضرب عنق «ريجي نالد» بيده وفاءً لنذره[1]، وقضى الحرس على مابقي فيه من رمق، ولما رأى الملك « كائي » عاقبة صاحبه المريعة فزع واستشعر الخوف ، ولم يشك أنه سيثنّي به ، فطيّب السلطان نفسه، وقال : ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هـذا فإنه نقض العهد مرة بعد مرة فجرى ما جرى »[2] .

ويقول ابن شداد :

« واستحضر البرنس « أرناط » وأوقفه على ما قال ، وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل »[3] .

---

(١) واضاف إلى ذلك ابن شداد « انه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر انه متى أظفره الله به قتله بنفسه » ص : ١٢٧ .

(٢) « السلطان صلاح الدين » ص ١٨٨ .

(٣) « النوادر السلطانية » ص ٦٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

فتح بيت المقدس :

وبعد معركة حطين سرعان ما حانت الساعة المباركة التي كان يتلهف لها السلطان ، ويسمو إليها ويهفو منذ أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ، يقول القاضي ابن شداد :

« وكان رحمه الله عنده من القدس امر عظيم لا تحمله الجبال »(١) .

وفي ٢٧ رجب من نفس السنة دخل السلطان بيت المقدس ، وبعد تسعين سنة عادت هذه القبلة الأولى ـ التي صلى فيها محمد ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في ليلة الاسراء ـ إلى حضانة الإسلام ووصاية المسلمين ، وكان من حسن الصدفة أن السلطان دخل بيت المقدس في نفس التاريخ الذي أكرم الله فيه النبي ﷺ بالمعراج .

يقول ابن شداد :

« وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم

---

(١) النوادر السلطانية : ص : ٢١٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

ما يسّر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس، قصده العلماء من مصر ومن الشام ، بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ،وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخُطب فيه ، وصُلّيت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُطّم الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيزٍ مقتدرٍ [1] » .

وكان السلطان نور الدين الزنكي رحمه الله قد صنع منبر بيت المقدس ، واهتم به اهتماماً كبيراً ، وتحمل في سبيله تكاليف باهظة ، رجاء أن يعيد الله بيت المقدس إلى أيدي المسلمين فينصب المنبر فيه ، فطلبه السلطان صلاح الدين ، ونصبه في المسجد الأقصى [2] .

من روائع « الخلق العظيم » :

وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصراني ما ضرب به السلطان صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم من أروع

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٦٦ .

(٢) راجع تاريخ أبي الفداء الحموي .

www.abulhasanalinadwi.org

مثل للخلق الإسلامي العظيم ، من كرم الطبع ، ورحابة الصدر ، وسماحة النفس :

« لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد همته وكرم طبعه ما ظهر يوم تسلّم المسلمون مقاليد « بيت المقدس » فتولّى جنده وعماله أمر البلد ، وكانوا يمنعون الناس عن أي عدوان وعسف ، فلم يصب أحداً من الصليبيين أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية ، وكان على باب داود أحد العمال الأمناء ، ليأذن لكل من أدى الفدية من أهالي البلد بالخروج منه [1] » .

ويذكر المؤرخ بعد ذلك أن أخا السلطان (العادل) والبطريق وباليان أطلقوا آلافاً من الأرقاء ، ثم يقول :

« ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدّقَ أخي عن نفسه ، وتصدّقَ باليان والبطريق كل عن نفسه ، والآن أتصدق أنا عن نفسي ؛ فلم يلبث أن أمر جنده لينادوا في جميع طرقات البلد وأزقته بإطلاق سراح الشيوخ والضعفاء

---

(١) « السلطان صلاح الدين » .

www.abulhasanalinadwi.org

الذين لا يطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شاؤوا ، فبدأوا يخرجون من باب « أليعازَر » ، وما زالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى غروبها ، وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجاوز عددهم الحصر .

وبالجملة فإن صلاح الدين حفّ هذه المدينة التي فتحها وانتزعها من أيدي الصليبيين بعطفه وكرمه ، ومروءته وسماحته ، مما يذكّرنا بما فعله الصليبيون الأول يوم فتحوا « بيت المقدس » سنة ١٠٩٩ م من أفاعيل الهمجية النادرة البشعة ، يوم مرّ « غودجر » و « تنكرد » بأسواق بيت المقدس وشوارعها فرآها مليئة بالأشلاء ، وكان الجرحى يئنون ويصرخون ويتألمون ويستغيثون ، وقد بلغت أنفسهم التراقي ولم يبق فيهم إلا الدّماء ، يوم أحرقوا المسلمين الأبرياء ، وعذبوهم بأبشع ألوان العذاب والتنكيل ، وقد لجأ عدد من المسلمين إلى سقوف القدس وأبراجه ، فرشقهم هؤلاء الصليبيون الغاشمون بسهامهم وأسقطوهم إلى الأرض ، وقد مزقت هذه المجزرة التي قاموا بها سرابيل كرامة العالم النصراني ، وسوّد ما اعتسفوه من جَور

www.abulhasanalinadwi.org

وعدوان واضطهاد وآثام وجه هذا البلد الطاهر المقدس ، حيث ألقى المسيح دروس الحب والعطف وقال :

طوبى للراحمين العاطفين الذين تنزل عليهم رحمة الله وبركاته .

وقد تناسى هؤلاء الصليبيون كلام المسيح عندما كانوا يحولون هذه الأرض المقدسة إلى مذابح للمسلمين المنكوبين ، افلم يكن من سعادة هؤلاء الصليبيين القساة ان صلاح الدين شملهم بعطفه ورحمته ؟!.

والرحمة من أعظم صفات الله ، فهي تاج العدل وجلاله، فأينما استطاع العدل وحق له أن يقتل نفساً ؛ استطاعت الرحمة أن تنقذها وتحييها .

ولو لم يذكر الدهر من مكارم السلطان صلاح الدين وجلائل أعماله إلا انه كيف استعاد « بيت المقدس » ؛ لكانت تكفي هذه المكرمة وحدها للدلالة على انه لم يكن ــ في مروءته وشهامته وبعد همته وكرامته ــ وحيد عصره وفريد دهره ، بل كان رجلاً وحيد العصور والأجيال كلها (١)» .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٢٠٢ ــ ٢٠٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

التيار الصليبي الجارف :

والمرة الأخرى ثارت ثائرة أوروبا بعد فتح « بيت المقدس» وهزيمة «حطّين» المخزية وفشل الصليبيين الذريع، فتكالبت أوروبا بأسرها على بلد صغير مثل الشام بجنودها المجندة وملوكها الكبار وفرسانها البواسل وقوادها الشجعان ؛ مثل « قيصر » و « فريدريك » و « رتشرد قلب الأسد » وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية والنمسا وبوغندي وفلاندرز وأمرائها ، ولم يقم في وجههم إلا السلطان صلاح الدين وأقاربه وعدة من خلفائه ، ينافحون عن الإسلام ، ويحمون ذمار المسلمين ، ويقاتلون عن العالم الإسلامي كله .

الصلح وإنجاز العمل وإكماله :

وأخيراً ، تمّ الصلح بين الفريقين اللذين قد تالت منهما الحروب الدامية المتواصلة التي دامت خمسة أعوام نيلاً كبيراً في « الرملة » ، سنة ١١٩٢ م ، وبقي « بيت المقدس » والمدن والقلاع التي فتحها المسلمون تحت أيديهم إلا ولاية « عكة » الصغيرة التي يحكمها الصليبيون ، وظل صلاح الدين سلطان سائر البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها،

www.abulhasanalinadwi.org

وتم على يده العمل الذي تولى مسؤولية إنجازه ، وبعبارة أصح : الذي قيّضه الله له وفوّضه إليه .

يتحدث المؤرخ النصراني عن انتصار السلطان، وانتهاء سلسلة الحروب الصليبية المشؤومة ، فيقول :

«وضعت الحرب المقدسة أوزارها، وخمدت نيران الحروب التي استغرقت خمسة أعوام متتابعات ، ولم يكن المسلمون يملكون قبل فتح حطين في تموز سنة ١١٨٧ م بوصة من الأرض في غربي نهر الأردن ، وأما يوم جرت الهدنة برملة في أيلول ١١٩٢ م فكان ما بين صور ويافا كله تحت أيدي المسلمين إلاّ رقعة صغيرة على الساحل ، ولم يكن في الهدنة شيء يخجل صلاح الدين البتة ، ولا شك أنه بقي معظم ما أخذه الصليبيون تحت يد الإفرنج ، ولكن النتيجة بالنسبة لهم كانت ضئيلة جداً إذا نظرنا إلى ما استهلكته الحروب من نفوسهم ونفائسهم فحسب ، ولم يستنجد « بطريق» روما ؛ إلا رَفَعَ سائر العالم النصراني سلاحه وخاض المهمة ، واستفرغ الجهود كل من « قيصر » و « فريدريك » وملوك انجلترة وفرنسا وصقلية ، و « ليوبولد » صاحب النمسا و « ديوك » صاحب بوغندي ، و « كاونت » صاحب

www.abulhasanalinadwi.org

فلاندرز ، وملك « بيت المقدس » الصليبي وغيره من الصليبيين الفلسطينيين ، وكبار فرسان داويه والاسبتار ، ومات عدد من ملوك وقواد وأمراء كافة الأمم النصرانية ، عسى أن يملكوا بيت المقدس ويفلحوا في إنقاذ دولة « بيت المقدس » الصليبية التي قد أشرفت على الانهيار ، وقد تمنوا أن تورق دوحة آمالهم مرة أخرى ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟

هلك قيصر « فريدريك » في هذه الأثناء ، وارتحل ملوك إفرنجة وفرنسا إلى بلادهم ، وثوى في ثرى « بيت المقدس » أعز أصدقائهم وكبار أصحابهم وجلة أشرافهم ، ولم يزل « بيت المقدس » في يد صلاح الدين رغم أنوفهم ، اللهم إلا دويلة على ساحل « عكة » ، كان يحكمها ملكها الصليبي المزعوم » .

« وفي الحرب الصليبية الثالثة تداعى العالم النصراني وجنّد طاقاته وأجلب على صلاح الدين ، ولكنهم لقوا منه صخرة صماء استعصت على الرجال وأعياهم انصداعها ، وأما جنود السلطان فقد أنهكهم ما لم يزالوا يعانونه من جهد مرير وتعب متواصل وعناء رتيب وعمل خطير غير

www.abulhasanalinadwi.org

مأمون منذ أعوام وشهور طوال ، ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة في شكوى مما أصابهم ، ولم يعرض أحد السلطان في الحضور عند طلبه وعرض نفسه في سبيل هذا العمل الصالح ، وربما يكون قد وقع شيء في قلوب ولاة الدولة الخاضعين للسلطان في الوديان النازحة لنهر دجلة لطلب السلطان الدائم المدد ، ولكنهم على كل حال جاؤوا بجنودهم عند السلطان بكل حماس وإخلاص ، وقد حاربت أفواج الموصل في المعركة الأخيرة التي وقعت في « أرسوف » بشجاعة نادرة وحماسة منقطعة النظير ، ولم يزل السلطان في هذه الحروب كلها على ثقة من جيوش مصر والعراق ، تمده وتعضده وتسانده كلما احتاج إليها ، وكذلك عززه الجنود الشمالية والمركزية لبلاد الشام دائماً. فكان العرب والمصريون والأكراد والأتراك كلهم خدماً طائعين للسلطان والمسلمين. والحق أنهم سارعوا إلى الحضور كلما طلبهم السلطان ، كأنهم خدم له فعلاً ، وقد جمعهم السلطان على اختلاف ألوانهم وسلالاتهم وعناصرهم وعلى ما كان بينهم من منافرات قبليّة ، ومفاخرات ومخاصمات قومية ، كأن الجنود كلهم جسد واحد ، وكل منهم ينتمي

www.abulhasanalinadwi.org

إلى عسكر واحد ، ولا شك أن السلطان واجه مرة أو مرتين عقبات في سبيل جمعهم تحت لواء واحد ، وعاين في بعض الأحيان اختلافاً كبيراً في طبائعهم ، ومن هذه المواقف الدقيقة تمرّد الجند في يافا،ولكن مع ذلك ظلّت هذه الجنود التي تنتمي إلى عناصر وأجيال شتى متحدة وخاضعة للسلطان إلى فصل الخريف سنة ١١٩٢ م ، ومنذ أن طلبهم السلطان لأول مرة في سنة ١١٨٧ م ، ظلت تجاهد في سبيل الله إلى نهاية الأمر . وفي هذه الفترة كلها لم تخرج عليه ولاية من ولاياته ، ولم يتمرّد أحد من قواده وعماله ، ولو أنهم — بحكم ما عُلّق عليهم من الآمال الجسام نظراً إلى قوتهم وإخلاصهم ومصابرتهم — كان في وسعهم أن يهزموا القوى الأجنبية ويزلزلوا دعائمها ، مهما بلغت عقائدها وقياداتها من العز والصلابة والمنعة وصلاحية الدفاع والبقاء . وإذا لم نجد عبر الفترة كلها إلا استثناءً واحداً وهو تنصل أحد أقارب السلطان منه (وأصلح الأمر بالصفح عنه فيما بعد) عرفنا مدى ما كان يتمتع السلطان به من نفوذ عجيب في رعيته ، ومهابة غريبة تمكنت في قلوب الناس مع حب

www.abulhasanalinadwi.org

وتقدير له ، وكان ولا يزال السلطان وحده يملك الأمر من جبال كردستان إلى صحراء نوبة بعد انتهاء المحن والشدائد التي جرّتها الحروب المتواصلة أيضاً . وهؤلاء : مَلِكُ كردستان و « كاثلين » صاحب أرمينية وسلطان قونية وقيصر قسطنطينية — كلهم يحبون من وراء الحدود أن يعتبرهم السلطان أنصاراً له وأحلافاً ، ولكن لم يطوّق السلطان عنقه بمنة أحد من هؤلاء الأنصار و « الاتحاديين » ، فلم يساعدوه قط ، وإنما حضروا إليه ليهنئوه بما أحرزه من النجاح في الصراع الذي خاضه السلطان صلاح الدين وحده » .

« ولا يمكن أن يقال في أحد من قواد السلطان — الذين كان يستشيرهم — أنه استأثر بالأمر لدى السلطان ؛ إلا ما كان في آخر حياته من أمر أخيه العادل ، نعم قد تظم السلطان مجلساً يشير عليه في أمور الحرب وغلب رأيه الخاطىء — في بعض الأحيان — على رأي السلطان مع صحته وسداده كما وقع في « صُور » و « عكة » ولكن لا يمكن لأحدٍ أن يدل على عضو من أعضاء هذا المجلس كان لرأيه في نفس السلطان تأثير أكثر من رأي غيره ، وإن إخوته وأبناءه وأبناء

www.abulhasanalinadwi.org

إخوته وزملاءه القدماء وعماله الجدد والقضاة العقلاء والوزراء المتحفظين والثقات الأوفياء والوعاظ المتعصبين والعلماء الكبار كلهم أجمعوا على الجهاد ، وساهموا فيه بالفعل ،ولم يألوا جهداً في النصح لمولاهم وتعزيزه ، كل حسب قوته وكفاءته ، وهل كان فيهم أحد ممن نسي أميرهم ومولاهم ؟! » .

« وهل كان في مثل هذا الموقف الحرج والمأزق المتلاحم الذي يشوش الفكر ويشتت البال ويجهد النفس إلا قلب واحد غلاب تمكن من جميع القلوب ، وإلا إرادة واحدة جبارة قهرت سائر النفوس ، وكانت هذه الإرادة إرادة السلطان صلاح الدين وذلك القلب قلبه (١) » .

وفاة السلطان :

وبعد ما قام بواجبه المقدس أحسن قيام ، وحصّن العالم الإسلامي من خطر الصليبيين ؛ استأثر الله بابن الإسلام البار في ٢٨ من صفر ٥٨٩ هـ وهو في السابعة والخمسين من عمره (٢) .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٣١٠ ـ ٣١٢ .

(٢) صرح ابن كثير أن السلطان ولد في سنة ٥٣٢ هـ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويتحدث القاضي ابن شداد عن وفاة السلطان،فيقول:

« ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ــ وهي الثانية عشرة من مرضه ــ اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم تنزل أن يقع الصوت في البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا ، واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام « الكلاّسة » ــ وهو رجل صالح ــ ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكّره الشهادة ، وذكّره الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا ، وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة ــ رحمة الله عليه ــ على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكّره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع،لا يكاد يفيق إلا في أحيان» .

www.abulhasanalinadwi.org

« ولقد حكي لي لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : « لا إلـه إلا هو ، عليـه توكلت » تبسم وتهلّل وجهه وسلّمها إلى ربه » .

« وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة » .

« وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلم إلا الله تعالى ، وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفديته بالنفس (١) » .

ويقول ابن شداد :

« إن السلطان لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً ، ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من انواع الأملاك (٢) » .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص : ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

« وما امكننا ان ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ؛ حتى في ثمن التبن الذي بلت بـه الطين ... وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد احضره القاضي الفاضل من وجه حل عرّفه (١) » .

السلطان الزاهد :

ويتحدث القاضي ابن شداد عن سيرة السلطان وخلاله وأخلاقه ومزاياه فيقول :

« وكان ـ رحمة الله عليه ـ حسن العقيـدة ، كثـير الذكر لله تعالى ، قد اخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ اهل العلم وأكابر الفقهاء » .

« واما الصلاة فكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى انه ذكر يوماً ان له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكـان إن مرض يستدعي الإمام وحـده ، ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعـة ، وكان يواظب على السنـن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليـل ، وإلا آتى بها قبل صلاة الصبح (على مذهب الشافعية) .ولقد رأيته ـ قدس الله روحه ـ يصلي في مرضه الذي مات فيه

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٥١ .

www.abulhasanalinadwi.org

قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه » .

« وأما الزكاة فإنه مات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل ، فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال » . (ولم يخلف شيئاً من الأملاك كما نقلنا عن ابن شداد فيما سبق) .

« وأما صوم رمضان فإنه كان عليه من فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام ... ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أُثبت الأيام التي يصومها ، لأن القاضي كان غائباً ، وكان الطبيب يلومه ، وهو لا يسمع ، ويقول : لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى » .

« وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وفاوياً له في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب

www.abulhasanalinadwi.org

ضيق الوقت وخلوّ اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى » .

« وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يحب سماع القرآن العظيم ... وكان يستقرىء من يحرسه في الليل ـ وهو في برجه ـ الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان ـ رحمه الله تعالى ـ خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة إذا سمع القرآن ، يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته » .

« وكان ـ رحمه الله ـ شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإنه إن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه . وكان ـ رحمه الله ـ يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضر في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ، ودمعت عينه » .

www.abulhasanalinadwi.org

« وكان ــ رحمه الله ــ كثير التعظيم لشعائر الدين .. ولقد أمر صاحبَ حلب الملك الظاهر ــ أعز الله أنصاره ــ بقتل شاب يقال له : السهروردي ، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً » .

« وكان ــ قدّس الله روحه ــ حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك أن الفرنج ــ خذلهم الله ــ كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف ــ حرسها الله تعالى ــ بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يَزَكا[1] على العدو محيطاً به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرّفهم ما قد دَهَمَ المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر

---

(١) اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش .

www.abulhasanalinadwi.org

الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو ــ رحمه الله ــ بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكة ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه، وانفصل مجلس المشورة على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم هو بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسّم فكره ، واشتدت فكرته » .

« ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة ــ وكانت ليلة الجمعة ــ من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا الله ، ونحن نقسّم أقساماً، ونرتب على كل قسم بمقتضاه، حتى أخذني الإشفاق عليه والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ،

www.abulhasanalinadwi.org

فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال ــ رحمه الله ــ : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذّن المؤذن ، وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلاً ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأني ما نمت ، وما بقي وقت للنوم ، ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه ، والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع مسرى النبي ﷺ ، ويقدّم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ،

www.abulhasanalinadwi.org

أنت حسبي ونعم الوكيل ــ فإن الله أكرم مــن أن يخيب قصدك . ففعل ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعــة من « عز الدين جرديك » ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنه بمثل ذلك ، ووصل في أثناء النهــار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا .. ولما كانت بكرة الإثنين جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة »[1] .

مكارم الأخلاق :

وكان السلطان مع زهده وورعه ونقاء جيبه يتحلى بالعدل والعفو ، والحلم والجود ، والمروءة والكرم ، والصبر والصرامة ، والثبات والاستقامة ، وغيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف ، يقول ابن شداد :

---

(١) « النوادر السلطانية » ص ٦ ــ ١٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

« وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه .. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على « تقي الدين » ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، وكان « تقي الدين » من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق »[1] .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١١ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان السلطان ذا حلم أصيل وتؤدة ، وقد روى المؤرخون قصصاً من قوة احتماله ، وشدة حلمه ، وصبره على الأذى ، وإحسانه إلى من أساء إليه ، لو رويت عن أوساط الناس لكانت موضع الدهشة والاستغراب ، فكيف من ملك قاهر ، وسلطان قوي !! وقد طلب مرة ماءً للشرب ، وتأخر إحضاره ، فكرر الطلب ولم يحضر ، حتى اتفق ذلك خمس مرات ولم يحضر ، فلم يزد على أن قال : إخواني إني أموت عطشاً ! فأحضر وشربه السلطان ، ولم يلم أحداً على تأخيره . وأبلّ من مرض طال به ، ودخل الحمام ليستحم ، فوجد الماء شديد السخونة ، فطلب ماءً بارداً ، فأحضر الخادم الماء ، ووقع عليه الإناء الذي فيه ، ولم ينجُ من الموت إلا بلطف من الله ، فما زاد أن قال : إذا كنتم تنوون قتلي فأخبروني بذلك ، واعتذر الخادم وسكت السلطان . وذكر القاضي ابن شداد أخباراً كثيرة من صفحه عن الأمراء ، وسعة صدره وحلمه[1] .

---

(١) راجع « النوادر السلطانية » ، وما ألف في أخباره.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد سجل القاضي بهاء الدين قصصاً عديدة للسلطان في عفوه وحلمه ، وصفحه عن أخطاء جنوده وزلات أصحابه[1] .

وأما في جوده وسخائه : فكان السلطان رحمه الله ـ كما صرّح به ابن شداد ـ : « ربما يهب الأقاليم ، وفتح « آمد » وطلبها منه ابن قره أرسلان فأعطاه إياه ، ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد ... وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مُهِمٌّ لعلمهم بأنه متى عَلِمَ به أخرجه . وسمعته في معرض حديث جرى يقول : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه ـ رحمه الله تعالى ـ[2] » .

---

(١) « النوادر السلطانية » ص ٢١ ـ ٢٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٣ ـ ١٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول ابن شدّاد في موضع آخر :

« وكان السلطان كثير المروءة ، ندي اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، وكان يكرم الوافد عليه ، وإن كان كافراً ... ولقد رايته وقد دخل عليه صاحب « صيدا » بالناصرة فاحترمه واكرمه ، واكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه (١) » .

وكان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع للمظلوم ويرثي له ، ويجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكي ابن شدّاد في كتابه فيقول :

« ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج ، وقد وصل بعض اليَزَكِيَّة ، ومعه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الإفرنج فسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

وسرقوا ابنتي ، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لي المملوك : السلطان هو أرحم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك ، وما أعرف ابنتي إلا منك ، فرقّ لها ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراهـا ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليه ، فخرّت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلّمت ابنتها إليها وحُملت حتى أعيدت إلى عسكرهم [1] » .

ويقول ابن شدّاد :

« إنه ما أحضر بين يديه يتيم إلا ترحم على مخلّفيه وجبر قلبه ، وأعطاه وجبر مصابه ، وإن كان له من أهـله كبير يُعتمَد سلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخير ما يكفّ

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

حاجته وسلمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها ، وكان لا يرى شيخاً إلا يرقّ له ويعطيه ويحسن إليه [1] » .

خلال الفتوة والفروسية :

ويدل على صبره واستقامته في الشدائد والأهوال ما حكى عنه القاضي بهاء الدين ، فقال : إنه رآه ببرج عكة « وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً بغية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب ، صابراً على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل ، وأنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل!! وهذه عناية ربانية[2] » .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

ولم يزل يطارد العدو في معركة ـ وهو في حالة المرض ـ إلى أن دخل الليل فضربت له خيمة لطيفة . يقول القاضي ابن شدّاد :

« وبتنا تلك الليلة أجمع ؛ أنا والطبيب نمرّضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب .. وبقي ـ رحمه الله ـ في مرضه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية [1] » .

وكان السلطان من « عظماء الشجعان » ويضرب به المثل في الشجاعة ، وقوة النفس ، وشدة الجأش، ومن ذلك مايروي ابن شداد ، فيقول :

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٩ ـ ٢٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

« وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين ... وكان ـ رحمه الله تعالى ـ إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويحاوره ـ رحمه الله ـ ، ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين الصفين ، وذلك أني قلت له : قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً ، فأذن في ذلك فأحضر جزء كما أحضر من له به سماع ، فقرىء عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشي تارة ونقف أخرى [1] » .

« وما رايته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط [2] » .

« وقد حارب في بعض الأحيان عدواً يبلغ عدده إلى خمسمائة الف أو ستمائة الف ، فنصره الله على عدوه ، فقتل وأسر خلقاً كثيراً منهم » .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٦٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

« ولقد وصل في ليلة واحدة نيف وسبعون مركباً على عكة ــ وأنا أعدّها ــ من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس[1] » .

« ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكة ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو ــ رضي الله عنه ــ ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نُصِرَ عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم ، وهم في العدة الوافرة[2] » .

ويدل على بعد همة السلطان ، وقوة إرادته وصلابة عزمه وتحمسه لدينه ، ما يحكي ابن شداد أن السلطان قال له ذات يوم : « أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؟ إنه متى ما يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلادوأوصيت

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٥ ــ ١٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

وودّعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت [1]» .

علم السلطان وفضله :

وكان السلطان عالماً فاضلاً نسّابة ، يقول ابن شدّاد :

« إنه كان حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره (٢) » .

وذكر بعض المؤرخين أنه كان حافظاً لحماسة أبي تمام بتمامها [3] .

ويتحدث « لين بول » عن أوائل حياته ، فيقول :

« وكان ميله الطبعي إلى علوم الدين ، فكان يسمع الأحاديث من علماء عصره ، ويعكف على البحث عن دلائلها

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٧ .

(٣) « البداية والنهاية » لابن كثير : ج ١٣ ، ص ٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

ورواتها والنقاش حول مسائل الفقه وتفسير آيات القرآن، وفضلاً على ذلك ، فكان أحب شيء إلى نفسه أن يدعم مذهب أهل السنة والجماعة بحجج دامغة ودلائل قوية ثابتة [1] » .

انقراض الدولة الفاطمية ومكرمة اخرى للسلطان :

وكانت سيطرة صلاح الدين على مصر نقطة انقراض دولة العبيديين[2] المعروفة بـ « الفاطمية » ، التي ظلت تجول وتصول في البلاد الإسلامية طوال قرنين وثمانيةوستين عاماً ، وأثّرت في ثقافة جزء كبير من العالم الإسلاميوأخلاقه وحضارته تأثيراً كبيراً ، وكان عصرهم مليئاً بالعجائب

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٢٦٢ .

(٢) أجمع محققو الأنساب أن بني عبيد لايمتون إلىأهل البيت النبوي بصلة ، وإنما ينتمون إلى رجل اسمه عبيد ، كان مجوسياً ، أو يهودياً ، وقد استوعب الموضوع القاضي أبو بكر محمد بن الطيب فيكتابه «الكشف عن اسرار الباطنية»، والقاضي عبد الجبار في كتابه « تثبيت دلائل النبوة »،والمقدسي في كتابه « كشف ما كان عليه بنو عبيد » .

www.abulhasanalinadwi.org

العقائدية ، والأحكام الغريبة ، والقوانين المضحكة ، نقدم بعض نماذجها نقلاً عن كتاب (الخطط والآثار)للمقريزي:

« أمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام ، وان لا يرث مع البنت اخ ولا اخت ولا عم ولاجد ولا ابن اخ ولا ابن عـم ، ولا يرث مع الولد الذكر او الانثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد » .

واعتبر الخروج من هذا القانون عداوة لفاطمة رضي الله عنها .

« وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم . . . وانقطع طلب الهلال من مصر » .

« وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية » . « وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ضرب رجل بمصر ، وطيفَ به في المدينة من أجل انه وجد عنده كتاب « الموطا » لمالك بن انس رحمه الله » (١) .

« وفي ٣٩٣ هـ قبض على ثلاثة عشر رجلاً ، وضـربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة ايام من أجل انهم صلوا صلاة الضحى » .

---

(١) « الخطط والآثار » : ج ١/ص ٣٤٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

« وفي ٣٩٥ هـ قرىء سجل آخر فيه منع الناس من اكل الملوخيا التي كانت محببة لمعاوية بن ابي سفيان ، ومنعهم من اكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضي الله عنها ».

« وكتب في صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه، وعلى ابواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء: سب السلف ولعنهم، ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب(١) ».

« شرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع ، واكل الملوخيا وجميع الأسماك ، فاقبل الناس على اللهو، وتفاقم الأمر في شدة البلاء ، وصاح الناس بالظاهر: الجوع الجوع ! يا امير المؤمنين لم يصنع بنا هذا ابوك ولا جدك فالله الله في امرنا (٢) » .

« وفي ٤٢٤ هـ ركب ولي العهد من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات ، فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض ... وبويع بالخلافة ، وعمره يومئذ سبع سنين (٣) » .

---

(١) « الخطط والآثار » : ٢/٣٤١ .

(٢) « الخطط والآثار » : ٢/٣٥٤ .

(٣) « الخطط والآثار » : ١/٣٥٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان حكم السلطان صلاح الدين نهاية هذا العصر المضحك الغريب ، وفاتحة عهد جديد ، بدأت تندرس فيه معالم الشيعية والرفض من مصر، وازدهرت السنةواتشرت، وأسست المدارس والمعاهد التي كان يدرّس فيها علماء السنة علوم الشريعة الإسلامية ، وأخذت تتضاءل رواسب عهد العُبيديين ، حتى غابت واختفت ، وقد أصبح مذهب الإسماعيلية ــ الذي ظل في مصر كدين رسمي طيلة ثلاثة قرون ــ غريباً في وطنه ، وطريداًفي مركزه ، وشريداً في معقله.

« واختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها »[1] .

وكان عصر حكم العبيديين عصراً ابتلي فيه الإسلام ابتلاءً عظيماً ، ومني فيه بمحنة كبيرة ، انتهكوا فيه محارم الله ، وتلاعبوا بالشريعة الإسلامية ، ونالوا من السنة وعقائد الإسلام ، فكان العلماء واهل السنة مقهورين ومستضعفين ، منخفضي الرؤوس أذلاء ، ليس لهم حرمة ولا قيمة ، ولا شوكة ولا سلطان ، واما الطغاة والأوباش والأوغاد والأجلاف فالقي حبلهم على غاربهم ، يعيثون في الأرض فساداً ، وقد استفحل امرهم وتفاقم شرهم .

---

(١) « الخطط والآثار » : ١/٣٥٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويتحدّث العلامة المقدسي عن هـذا العصر في كتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » ، فيقول :

« وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنـة سبع وستين وخمسمائة . وفي أيامهم كثر أعداء أهل السنة ، واستحكم أمرهم ، ووضعوا المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدوا عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، كالنصيرية والدرزية والحشيشية ـ نوع منهم ـ وتمكن دعاتهم منهم ـ لضعف عقولهم وجهلهم ـ مالم يتمكنوا مـن غيرهم . وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن مـنّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ، وتقدّمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد[1] » .

وكان من الطبيعي أن يفرح أهل السنـة والمؤمنـون الصادقون بهذه الثورة في الحكم ، التي كانت مقدمة لثورة

---

(١) كتاب « الروضتين في اخبار الدولتين » : ١/٢٠١ .

www.abulhasanalinadwi.org

في الدين والأخلاق ،ويعرب العلامة المقدسي ــ الذي ولد قبل تسعة وعشرين عاماً من هذه الثورة وشاهد ما أعقبها من آثار وتقلبات ــ عما أفعم قلبه من غبطة وفرح كبير ، فيقول :

انقرضت تلك الدولة وزالت عن الإسـلام بمصـر بانقراضها الذلة[1] .

وقد حدّث العلاّمة الحافظ ابن قيم في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة» عن انتشار الباطنية وعواقبه ثم يذكر انقراض هذه الدولة بأيدي نور الدين وصلاح الدين بعبارة تتدفق بالقوة والحماس :

« ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق ، وظهرت مـن المغرب قليلاً قليلاً ، حتى استفحلت وتمكنت ، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب ، ثم أخذوا يطأون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر ، فملكوها ، وبنوا بها القاهرة، وأقاموا على هذه الدعوة مصرّحين بهـا هم وولاتهم وقضاتهم . وفي زمانهـم صنفت رسائل إخوان الصفـا والإشارات

(١) كتاب « الروضتين في اخبار الدولتين » : ٢٠١/١ .

www.abulhasanalinadwi.org

والشفا وكتب ابن سينا ، فإنه قال : كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية . وعطّلت في زمانهم السنة وكتبها والآثار جملة إلا في الخفية . وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي، واستولوا على بلاد المغرب ، ومصر والشام والحجاز ، واستولوا على العراق ، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين ، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما ليس لأهل السنة ! فكم أغمد من سيوفهم في أعناق العلماء، وكم مات في سجونهم من ورثة الأنبياء ، حتى استنقذ الله الإسلام والمسلمين من أيديهم في أيام نور الدين وصلاح الدين ، فأبلّ الإسلام من علته ، بعد ما وطّن نفسه على العزاء ، وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء ، وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق ، وثابت إليه روحه بعد أن بلغت التراق ، وقيل مَنْ راق ، واستنقذ الله بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب ، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب»[1].

---

(١) « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : ١/٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

والكتب التي تؤرخ هذا العصر تحدثنا أن هذا النبأ السار تلقّى ترحيباً بالغاً من العالم الإسلامي بوجه عام والشام والعراق بوجه خاص ، وكاد يطير المسلمون كلهم فرحاً وسروراً .

وبالجملة فإن صلاح الدين بينما هو ـ بالوقوف في وجه الغزاة الصليبيين الطامعين ـ قد أنقذ العالم الإسلامي من الرق السياسي والفوضى الخلقية والثقافية ، وأنجاه من براثن الزاحفين من الغرب ؛ إذا هو ـ بالقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية ـ سدّ أبواب الفساد الذي قد أخذ يستشري ويشيع الباطنية والإسماعيلية لا في مصر فحسب ، بل في العالم الإسلامي كله ، وتمخض عن الفوضى الفكرية والتدهور العقائدي ، والتفسخ الخلقي الذي ظلت الأمة الإسلامية المنكوبة فريستها طيلة ثلاثة قرون .

إن التاريخ الإسلامي المجيد لن ينسى هذين العملين اللذين قام بهما السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولن يتخلى أحدٌ من المسلمين في أي عصر ومِصْر من منّة هذا المجاهد الكردي الباسل المغوار .

★ ★ ★

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس

المقدمة	٣
الغارات الصليبية وخطر جديد على الإسلام	٧
السلطان صلاح الدين الأيوبي	٢٣

www.abulhasanalinadwi.org

سِيَر إسلامية

سلسلة تراجم اسلامية موجزة تعتمد أوثق المصادر

صدر منها :

١ ـ **صلاح الدين الأيوبي (البطل الناصر لدين الله)**
تأليف : السيد ابي الحسن الندوي

٢ ـ **احمد بن عرفان (الإمام المجاهد الشهيد)**
تأليف : سعيد الأعظمي الندوي

٣ ـ **ربيعة بن كعب (شاب كان همه الآخرة)**

٤ ـ **ابو هريرة (تلميذ النبوة النجيب)**

٥ ـ **ابو موسى الأشعري (الرباني العابد والفاتح المجاهد)**
والثلاثة الاخيرة من تأليف : محمد علي دولة

www.abulhasanalinadwi.org